خمسة في سيارة

٨

مناقشة في الاستعمار والاطفال والنبوغ

المصري — هنيئاً لكم بلدكم أيها الفرنساويون . ففرنسا جنةٌ وعدكم الله بها ومن يقصدها من السياح

ألا ترى هذه السيارة تتخطى الطرق المعبّدة الى جبال مكسوّة بالحراج والغابات مرتفعة تناطح السحب تارةً وآخذةً في الانخفاض شيئاً فشيئاً الى اودية تشقها الانهار ملء سلسبيلاً تارة اخرى

فلا تقع العين على وادٍ ليس بذي زرع او على بقعة خلت من روعة الحسن

على انهُ يخيل اليَّ ان الطبيعة وحدها فعلت في الارض ما فعلت فإن السكان فانا لم نقع اعيننا على شبح لآدميّ بعدُ مما يؤيد حقيقة عقمكم التناسلي. فبلدكم تتسع لثمانين مليوناً لا لاربعين لما حوت من الثروة على ظهر الارض وفي باطنها

فلماذا تستعمرون ان لم يكن حبًّا بالمجد واندفاعاً وراء روحكم العسكري الموروث وطمعاً باستغلال المستعمرات على اخصر الطرق واهونها حتى اذا اثريتم عدتم الى التمتع باجمل بلاد الله

الافرنسي — انتا قوم قلّ نسلنا لاننا نسعى الى تحسين النوع لا الى الاكثار منهُ. فواحدنا يؤثر المعيشة الهنيئة مؤدياً نفسه وابنه احسن تأديب على معيشة لا تمكنهُ من الاستمتاع المادي والادبي اذا كثر نسله

اما استعمارنا فهو للمجد وللترف في العيش سعياً وراء الكماليات لا الضروريات . وهل من لوم علينا في ذلك او تثريب ؟ . ان المدنية الحقة تتطلب كلاًّ ورقيًّا في العيش لا اكلاً وشرباً فقط

الانكليزي — ما هذه الانانية ؟ وكيف توفقون بين ما تقولهُ وبين حاجات الشعوب التي تنزلون على ظهورها

الافرنسي — أأنتم تتكلمون عن الانانية وقد احتكرتم انواعها . لا تحدثني عن

كندا واستراليا ونيوزيلاندا فهذه بلدان يسكنها بريطانيون مثل الذين يسكنون انكلترا واسكوتلندا فاذا ذكرت حكوماتهم وتجارتهم وحضارتهم فاذكر انهم انكليز سكن بعضهم في الجزر البريطانية والبعض في هذه البلاد المترامية الاطراف فلا فضل لكم في كل ما هم فيه من مدنية وعمران

ولكن حدثني عن البلاد الاخرى التي لا يمتُّ اهلها اليكم بنسب . ماذا فعلتم فيها واين هي من المدنية واي يد لكم في تعليمها وتهذيبها ورفعها في سبيل الحضارة الحديثة

الانكليزي — قابل حالهم الآن بما كانت عليه قبل ان تتولى نحن شؤونهم تجد الجواب

الافرنسي — هذا غاية التضليل . ستقول انكم قد اغنيتموهم بعد جوع وامنتموهم بعد خوف واقمتم العدل مقام الظلم . اما ليس بالخبز وحده يحيا الانسان

فهل قربتموهم الى قدس حضارتكم وبالتالي الى قدس الحضارة الغربية؟ وهل مكنتموهم منها في شيء . بل تعطفون على الاميّ الجاهل حتى يتعلم ويرطن بلسانكم فتنقلبون اعداء له كأنهُ اخطأ او ضلَّ السبيل . ذلك انكم تسمون الى المادة وغرضكم من البلاد الغربية عنكم ان تظلَّ سوقاً تبيعكم موادها الاولية بابخس الاثمان وتبيعونها مصنوعاتكم باغلاها . نحن واثم قوم متمدنون . ولكننا نحن نمدّن واثم لا تمدنون

نحن نأتي بمدنيتنا تدعمها قوتنا وتقول من شاء ان يلبس لباسنا فلهُ ما لنا وعليه ما علينا كأنهُ افرنسيٌّ من باريز ومن لم يشأ فليبقَ في قذارته . كذلك كل اصحاب الحضارات السابقة . واما انتم فلا يندمج غير بريطاني بكم ابد الدهر

السيدة اللبنانية الافرنسية — (مخاطبة المصري) ارأيت هؤلاء الغربيين انهم لا يفهمون الا القوة فدع جيشاً من الجيوش الشرقية يصدم جيشاً من جيوشهم ويقهرهُ ترنا عندهم قوماً صالحين . اما فيما سوى ذلك فانا نظل سلعة في ايديهم

على ان الذنب ليس ذنبهم . فكل حضارات العالم السابقة — كما يقول زوجي — قامت على هذا المبدأ فالدنيا مع الغالب والناس على دين القوي وعلى حضارته

وصاحت السيدة الانكليزية ان اسكتوا وانظروا ما اجمل هذا الوادي فالتفت القوم واذا بهم على قمة جبل عالٍ وتحتهُ وادٍ كأنهُ قطعة من خمائل الجنة تكتنفهُ اكام مختلفة الالوان باختلاف اوراق الشجر تهطل عليه الامطار ثم تطلُّ عليه الشمس

وقال السائق هذه البوربول

وهي بلدة قائمة على ارتفاع نحو ثماني مائة متر عن سطح البحر وتحيط بها الجبال من كل ناحية . مياهها زرنيخية يصفرها لتقوية عظام الاطفال فتراها مكتظة بهم في غاباتها اولاد . وفي حدائقها اولاد . وفي حماماتها اولاد . وعلى ينابيعها اولاد . وعلى محطة السكك الحديدية فيها اعلان مكتوب بالقلم العريض انها محطة للاولاد . فاذا تمتع هؤلاء الاولاد بكل ما فيها تمتع الرجال والنساء بهوائها النقي ومياهها المنعشة ومناظرها التي تأخذ بالالباب . اما ليس في هذه الدنيا من كمال ولا بد لك من ثمن تدفعهُ لكل متاع

فالرجل الذي لم يتمتع بلذة الولد ولم يفهم انهم اكباد آبائهم وامهاتهم تمشي على الارض يجوز لهُ ان يتبرم بالبوربول وان يستغني عن كل ما وهبتهُ اياها الطبيعة فراراً من هؤلاء الاطفال

فنادق البلدة عديدة معها تتنقل من واحد الى آخر لا تستطع الفرار من هؤلاء الاطفال . ان دخلت الردهة عثرت بطفل بين رجليك وآخر امامك او جلست تقرأ اخذ صراخهم بحواسك الخمس فافتقدك الصواب او قمت لتأكل جاز لهم ان يقذفوا الكرة لاعبين في غرفة الطعام وعلى مائدتك . اما النوم فحرام عليك الا في الهزيع الرابع من الليل

فان تفهم هؤلاء الاولاد فلست بفاهم امهاتهم وآباءهم . فالولد عزيز على ابيه حبيب الى قلب امه . عويلهُ موسيقى لاذانهما ونبهُ تسلية لهمومهما . اما ما ذنب الرجال العازبين ؟ ما ذنبهم في كل هذا واي جرم اقترفوهُ حتى يقذفهم الآباء بلطف ابنائهم وبهجة ابنائهم وخفة ابنائهم وظرف ابنائهم ونبوغ ابنائهم

قال صاحبنا المصري يوماً لصحبهِ وقد بلغت منهُ الروح التراقي هل تعرفون حكاية كاتبكم الانكليزي تشارلس لامب . قالوا هاتها . قال كان هذا الكاتب المشهور عزباً وحدث انهُ دعي ذات يوم الى العشاء الى بيت صديق لهُ ذي اولاد يلعبون ويمرحون وبينما هم جلوس الى الطعام بادرتهُ ربة الدار سائلة انك تحب الاولاد يا مستر لامب . الا تحبهم وكيف تحبهم ؟

اجابها مسلوقين ايتها السيدة مسلوقين !

فوالله لو بعث الآن وجيء بهِ الى البوربول لاحبهم مسلوقين ومقليين ومشويين فان كان حقاً ان ملكوت السموات لمثل هؤلاء الصغار فحق ايضاً ان البوربول لهم وليست هذه ولا تلك لامثالي

الجميع — صارخين في وجهه — يا لك من قاس عاتٍ

السيدتان — هذا دليل على انك لم تتزوج وانك في اشد حالات الحاجة الى الزواج فيحنو قلبك ويرق طبعك

الرجلان — زوجوه . زوجوه . قصاصاً لهُ على ما يقول

ولم يطل المقام باصحابنا في البوربول فان الاربعة الذين عابوا على المصري قسوته على الاطفال لم يكونوا اشد منهُ احتمالاً للصيبة فتركوا البلد وفي القلب غصة اذ ليس بالسهل على المرء ان يفارق بلداً حوى كل ما تشتهي النفس الا محاسن الصغار وقفلوا راجعين الى فيشي فباتوا فيها ليلتهم ثم شدُّوا الرحال الى « لبون » ومنها الى « اكس لابان » فمكثوا يوماً وبعض يوم ثم قصدوا الى اعالي جبال سافواي الى بلدة تدعى « شاموني » Chamonix

***

وكأن النكتة التي رواها عن الاطفال في البوربول نكّتت عقدة لسان صاحبنا المصري وشجعتهُ فزال عنهُ الكثير من حيائه فجلس في مقعد من السيارة لينظر ما ارتفع من الجبال حول شاموني ويشير الى « الجبل الابيض » ويقول . ما هذه الجبال بل ما هذا الجمال او بماذا تشبهون هذا الجبل ايها الرفاق ؟

الافرنسي — اموعظة منك على الجبل انت الآخر ؟

المصري — لا . ولكن بماذا اشبه هذا الجبل وبماذا ينبغي ان يشبَّه ؟ كيف اصف ما في الجبال من عظمة ومن وقار ومن جمال يبدو لك وانت بعيد عنهُ فيملأ خيالك اعجاباً ويصور لك البعدُ الفنَّ ممثلاً فيهِ . فاذا ما اقتربت منهُ ودخلت حراجهُ أو تسلقت صخورهُ وتطلعت باشجارهِ وتفرست ذلك الجمال وتلك العظمة رأيتها يذوبان رويداً رويداً واذا ما حسبتهُ جمالاً قد صار تحت قدميك فبدا لك القريب الذي كان بعيداً وبانت مساميهُ . فالشجرة قد اعتراها اليبس والصخر تفتت تراباً والارض منها المرتفع ومنها المنخفض شأنها في كل طرقك على غير الجبال

فبعد عن الجبل وقد ازدريتهُ ثم تبدو منك التفاتة الى الوراء تعود اليك جماله ورجح فيأخذ عليك حواسك عظمة ووقاراً

انهُ اشبه الاشياء بالنابغة البقري

تقرأ الشعر الخالد فتبني للشاعر قصراً شامخاً يكاد يمسُّ عرش الآلهة فاذا قربت

منهُ وخبرتهُ أو قرأتهُ ودرست حياتهُ رأيتهُ بشراً مثلك له كل عيوبك وقد لا يكون لهُ كل فضلك

وتسع بالقادة الزعماء الذين استهووا الجماهير فساقوهم الى الثورة أو الى الحرب او الى الاصلاح فيصور لك البعد اعالهم كمالاً وأقوالهم احكاماً وتبرز لك اشخاصهم متقنة الصنعة من أبدع ما اتقن الخيال . ثم تقرب منهم وتتاح لك عشرتهم أو تقرأ سيرهم الشخصية فاذا انت امام رجل يحب ويكره ويغضب ويرضى ويطمع ويزهد بل يسفل حيث يعلو سواهُ فتعود وانت تظن انهُ لا يستحق ما اعددت لهُ من قصور أو انك انتَ تستحق ما كنت قد اعددتهُ لهُ . ذلك لان نظام الطبيعة في الاشياء والاشخاص يأبى الوحدة — ماذا أقول بل يأبى التناسق

فالطبيعة تكره الكمال ولا تسعى اليهِ رغم ما يقولهُ لنا علماء الاخلاق . بل هي تجمع كل ما تناقض في واحد . حيث الذكر هناك الانثى وحيث السرور هناك الغم وحيث العلو هناك الهبوط وحيث الجمال هناك القبح

تلك الزهرة جميل لونها فائح عطرها قائمة على سفح الوادي تغشاها الشمس وتحييها المطر لا تلبث ان ينهار عليها صخر من عل فاذا بها اثر بعد عين

لكل شيء في الطبيعة ندٌّ يقاومهُ ولكل شيء في الانسانية ثمن

اذا طمعت بالثروة فسعيت لها وأجهدت نفسك فاحرزتها تفقر غيرك بل تفقر نفسك في أمور أخرى . قد يتاح لك متاع المال ولكنك قد تحرم متاع الحب الطاهر أو الفكر النير أو الراحة تبذلها للغير . او افعل الشر تنل جزاءك من عملك بالذات وشرّ الخير قد برز في ناحية اخرى من نواحي ما عملت

بل عقابك على عملك أو ثوابك عليهِ آت في دنياك كرهت أو رضيت . ولا تقس هذا العقاب أو ذلك الثواب على مقياس عقلك فانك تضلُّ السبيل فعقلك ابن عاطفتك ووليد رغبتك لم يُتَح لهُ بعد ان يستقلَّ عنهما . فالقوانين التي تعاقب السارق على سرقة من السرقات بالحبس سنة واحدة وآخر على سرقة أخرى بالحبس سنتين — هل أصابت ووزعت العدل بالسواء ؟ ألم تحرم الطبيعة السارق لذة الحياة المطمئنة ولذة العمل ولذة الكسب منهُ — دع عنك ما حرمه منهُ القانون . فالطبيعة تكره الكمال ولا ترضى عن عظمة تقوم الا البسها قصاً . فكأنَّ الانبياء اخذوا من درسها صورة للخلود وللحياة الاخرى وما وصفوا فيها من ميزان عادل يوزع الامر بين الناس بالقسطاس

لا . انما تجزى كل نفس بما صنعت وكل شيء بما هو ليس في الآخرة فحسب بل في هذه الدنيا ايضاً

ناموس المقاصة يوزع على الناس وعلى الاشياء اقساطهم في حياتهم بله ما بعد الممات صعود وهبوط . غناء وفقر . موت وحياة . عذاب وسرور . هذه هي الطبيعة بل هذه هي الحياة

أمور تناقضت واجتمعت في شخص تسموه عقلاً وعواطف وسموه الانسان واجتمعت في شيء تسموه جبالاً وبحاراً وبرداً وحراً وموتاً وحياة وسموه الطبيعة

***

وما اشبه التابعة بالجبل او اشبه الجبل بالتابعة في ان كلاً منهما يحتوي كل ماحولهُ فليس الرجل بالعبقري التابه ان لم يضمَّ في برديه كل آمال جيله وامانيه وكل ماضي جيله وتقاليده وكل مطمح لجيله وكل مثال عال

تقرأ التابعة فترى انهُ ترجم فكرك وقال ما همست انت بقولهِ فلذا سارت أقواله مضرب الامثال . فليس التابعة من يقول الشعر فلا تدرك ما يقول او يكتب فلا يعبر عن فرحك وحزنك وعن املك وعن شعورك . لا . انما التابعة من أخذ أبسط الامور في الحياة فحاكها رأياً جامعاً في ثوب لا يبلى او تناول اقرب الاشياء الى النفس فنطق بها فكراً حيًّا يعيش ابد الدهر

كذلك الجبل العظيم الفخم الجبل . انظر اليهِ . ألم يحو الصخور الكبير منها والمتحطم والاشجار الشامخ منها والضارب رأسهُ في الارض . انهُ جمع الوحدات وضمَّها كلها ضمة واحدة فكاد تخاله مستقلاً عما حوى اذ يهرك بوقار عظمتهِ وما هو الا هذه الحجارة وهذا النبات اتخذوا شكلهُ قالباً رفيع الشأن

السيدة اللبنانية — تنظر الى المصري نظرة اعجاب فلا تبدي ولا تعيد

السيدة الانكليزية — لقد هبط عليك الوحي . اقبل تهنئي

الانكليزي — اذا كنت قد شعرت بشيء من البرد فخذ هذه الكاس من الوسكي

الافرنسي — حقًّا انك احسنت التعبير . ان خيال الصحراء يتبلك في اعالي الجبال فهنيئاً لك

المصري — لا هذا ولا ذاك . ولكنني امام جمال الطبيعة وفي وسط قوم كرام

سامي الجريديني

الجنرال السر آلفرد نزر وصورة روح امه

هوديني المشعوذ الذي وقف آخر حياته
على كشف خداع الوسطاء

الجنرال السر آلفرد نزر وصورة روح غير واضحة
مقتطف دسمبر ١٩٢٨
انظر صفحة ٤٠٩